تمييع الولاء والبراء

بين النقل والعقل



عبد العزيز بن سعود الصويتي التميمي

الألوكة
www.alukah.net

تمييع الولاء والبراء

بين

النقل والعقل

تأليف
عبد العزيز بن سعود الصويتي التميمي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلما تسليما كثيرا..

أما بعد:

فأضع بين يديكم كتابا عن الولاء والبراء جمعت فيه بين النقل والعقل قدر وسعي ليكون حجة على أهل النقل والعقل معا متحريا في ذلك مذهب السلف الصالح رضي الله عنهم، وقد اقتضبت في العبارة واكتفيت بالإشارة في المواضع التي أطنب فيها غيري ممن صنف في الولاء والبراء ومن تلك المواضع - تعريف الولاء والبراء، بيان مذهب السلف، شرح آيات الولاء والبراء، حكم الإقامة في دار الكفار والتشبه بهم، بيان مظاهر الولاء والبراء قديما وحديثا، مسائل الجهاد في سبيل الله، نواقض الإسلام وغيرها من المباحث- التي بسطها غيري في كتبهم جزاهم الله خيرا.

وإنما عنيت –في كتابتي هذه- بإيضاح بعض الإشكاليات في الولاء والبراء وكشف الشبهات والإجابة عن التساؤلات من الناحيتين - النقلية والعقلية- سيرا على طريقة السلف ومن سار على نهجهم وسلك سبيلهم خاصة إمام المنقول وفارس المعقول أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية – تغمده الله بواسع رحمته- وأسأل الله أن يكتب لهذا العمل قبولا عنده، وأن يجعله خالصا صوابا.والله ولي التوفيق.

وإنني أشكر الله أولا و آخرا وظاهرا وباطنا على كل نعمة أنعمها علي، أشكر كل من أفادني بفائدة أو ملحوظة، كما أخص بالشكر الشيخ المحدث عبدالعزيز الطريفي الذي اقتطع من وقته جلستين قرأت عليه شطر كتابتي وقد أفادني جزاه الله خيرا..

معنى الولاء والبراء:

لفظة (الولاء) في لغة العرب تأتي على معان متقاربة ترجع إلى معنى واحد و هو (القرب)، كما أن لفظة (البراء) ترجع في لغة العرب إلى معنيين أنسبهما للمعنى الاصطلاحي أنه (البعد!!)[1].

والولاء والبراء في عرف العلماء أخص منه في وضع اللغة، قال أبو العباس ابن تيمية- رحمه الله- (وأصل البراء البغض وأصل الولاية الحب)[2] ومعلوم من أصول أهل السنة أن هناك تلازما بين الظاهر والباطن، وعليه فإن الحب الباطن لله ورسوله والمؤمنين يلزم منه طاعة الله ونصرته ونحو ذلك من الأعمال الصالحة الظاهرة، كما أن البغض الباطن للطاغوت والكفر والكافرين يلزم منه مجانبتهم في العبادة وما يخصهم من اللباس والسلوك السيئ!!!

ولا ينتفي التلازم بين الباطن والظاهر إلا بالعجز، أو بالإكراه، أو بالخطأ، وأما النسيان والجهل –وإن كان مما يعذر بهما باتفاق في النسيان وبالخلاف في الجهل على قولين – لا يحصل فيهما انفكاك بين الظاهر والباطن.

والمقصود أن المحبة أصل الولاء، والبغض أصل البراء، وما يحصل من الغلط في أمور الباطن أعظم مما يحصل في أمور الظاهر؛ لأن الغلط في أصل الشيء أعظم من الغلط في فروعه اللازمة له.

علاقة الولاء والبراء بالإيمان

يمكن كشف العلاقة بين الإيمان وبين الولاء والبراء بشكل أدق وأعمق بالنظر إلى ماهية الإيمان وهو عند السلف (قول وعمل) وهو أدق من تعريفات المتأخرين؛ إذ يتناول أربعة أمور- قول القلب وقول اللسان، وعمل القلب وعمل الجوارح - والولاء والبراء ألصق بالعمل منه بالقول؛ لأن عمل القلب به الحب والبغض الذين هما أصل الولاء والبراء، بينما قول القلب به المعرفة والاعتقاد وإن كان عمل القلب يلزم منه حصول الاعتقاد قبل ذلك؛ إذ قول القلب يسبق عمل القلب إذ لا يمكن أن يوجد حب وبغض على أمر عدمي في الأعيان و الأذهان، وإذا تحرك القلب بالحب والبغض فيلزم منه ظهور أثره على الأفعال والأقوال لما بين الظاهر والباطن من التلازم، لكن هناك كثير من الاعتقادات لا مدخل لها في الولاء والبراء كالعلم بأن السماوات والأرض والجبال والشجر

---

[1] (?) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (6/142) و (1/236)
[2] (?) مجموع الفتاوى (10/465)

والدواب كلها مخلوقة وأن السماوات سبع والأرضيين مثلهن ونحوها من الأقدار الكونية التي لا تستلزم حبا ولا بغضا، كما أنه يستثنى من عمل القلب الرحمة والحب الطبيعي؛ إذ مثل هذا لا ينافي الولاء والبراء ولا مدخل له فيه؛ وبهذا يتضح أن الولاء والبراء أخص من الإيمان وهو ركن فيه؛ لدخوله في ماهية الإيمان، وقد ظن بعض المتأخرين أن ذكر الجملة الشرطية في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [81] يستلزم أن يكون شرطا ولم يفرقوا بين الشرط اللغوي والشرط الاصطلاحي مع أنه لا تلازم بينهما!

والمقصود أن الولاء والبراء ركن في الإيمان بل هو أوثق أركانه كما قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: ((أي عرى الإيمان أوثق؟)) قال: الله ورسوله أعلم، قال: ((المولاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله)) رواه الطبراني [3] وحسنه الألباني [4]. قال أبو العباس ابن تيمية –رحمه الله- : " فَإِنَّ تَحْقِيقَ الشَّهَادَةِ بِالتَّوْحِيدِ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُحِبَّ إلَّا لِلَّهِ وَلَا يُبْغِضَ إلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُوَالِيَ إلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُعَادِيَ إلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ وَيَأْمُرَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَيَنْهَى عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّك لَا تَرْجُو إلَّا اللَّهَ وَلَا تَخَافُ إلَّا اللَّهَ وَلَا تَسْأَلُ إلَّا اللَّهَ وَهَذَا مِلَّةُ إبْرَاهِيمَ وَهَذَا الْإِسْلَامُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ " [5] والولاء والبراء شعب منها ما يقدح في أصل الإيمان كبغض الله ورسوله والمؤمنين وحب الطاغوت والكفر والكافرين ومنه ما يقدح في كمال الإيمان لا في أصله كحب بعض أهل الفسوق والعصيان وفي الحديث: (من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان) رواه أبوداود وحسنه الألباني [6]

منهج السلف في الولاء و البراء:

والسلف الصالح لم يختلفوا في هذا الأصل العظيم في الجملة لوضوحه وأهميته وكثرة وروده في الكتاب والسنة، وقد ألفت فيه كتب كثيرة جدا، وخلاصة مذهبهم في الولاء والبراء هو: وجوب بغض الكفر والكافرين ومحبة الإيمان والمؤمنين كما لم يتنازعوا في بقاء العزة الإيمانية ومعاملتهم بالعدل سواء في ذلك المحارب والمسالم، وإنما تنازعوا في معاملة غير الحربيين بالبر بهم والإقساط إليهم على قولين!! وجمهورهم على أنهم يعاملونهم بالبر والإقساط كما ذكر ذلك القرطبي وغيره.

---

3 (?) المعجم الكبير للطبراني (9/415) رقم (11372)
4 (?) السلسلة الصحيحة (3/72)
5 (?) مجموع الفتاوى (8/337)
6 (?) السلسلة الصحيحة (1/379)

و رغم أن الولاء والبراء في الكتاب والسنة وهدي سلف الأمة في غاية الجلاء عقلا ونقلا إلا أن هناك من أخطأ فيه ما بين إفراط أو تفريط، وإليك بيان الطائفتين اللتين أخطأتا فيه:

طائفتان أخطأتا في الولاء والبراء:

وقد أخطأت في الولاء والبراء طائفتان:

الطائفة الأولى: من أدخلت في الولاء والبراء ما ليس منه فحصل منها شدة؛ وهؤلاء جعلوا من لازم بغض الكافرين وكرههم إساءة معاملتهم مستدلين بقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [58 \ 22] وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تبدؤوهم بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه)) [7] ونحوها من النصوص، وتأولوا النصوص الواردة في حسن معاملة الكفار ظنا منهم التعارض بينها. وهؤلاء على رتب متفاوتة بحسب القرب من المنهج القويم والصراط المستقيم، وليس الكلام مخصصا عن هذه الطائفة.

الطائفة الثانية: وهم من أخرج من الولاء والبراء ما هو منه فحصل منهم تساهل وتمييع له؛ وهؤلاء تأثروا باللغة الإعلامية وبريقها، وما تنفخه الليبرالية الشهوانية في بوقها، من التهوين بالأصول الإيمانية، والدعوة إلى المساواة المطلقة، وإشاعة الأخوة الإنسانية، والتعايش مع الآخر، والانفتاح، والتسامح، والتعددية، والطائفية، ونبذ البغض، والكراهية، والتطرف، والإرهاب، والتزمت، والتشدد، فتارة يقولون: لماذا نكره الأخر؟؟ ولماذا نبغض الكافر ولم يصدر منه خطأ اتجاهنا؟ ونحوها من العبارات التي تحاول تشويه صورة الولاء والبراء- التي بتكرارها وتنوع أساليبها شكلت في الأذهان قاعدة يظنها المتأثر بهم من المسلمات وهي في حقيقتها وهميات!! [8]

وكثير من الشرعيين الذين تأثروا بمثل هذا الطرح - وتشكلت في أذهانهم تلك الأوهام – راحوا يبحثون عن مخارج لتغيير معنى البراء من الكافرين إلى غير المعنى الذي نطق به الكتاب والسنة، وتحدث عنه سلف الأمة، ولهذا تجدهم يستدلون على عدم بغض الكافرين بأن الله

---

[7] (?) صحيح مسلم (7/5) رقم (5789)

[8] (?) قال الشيخ المحدث عبدالعزيز الطريفي معلقا: إن سبب وجود الجفاة أن منهم طائفة سبق إلى أذهانهم المعاني الغالية للبراء التي يظهرها الطرف الأول فـأثر ذلك عليهم فقـابلوا الإفـراط بالتفريط كما سبق إلى أذهان المعطلة التشبيه فراموا التنزيه وتجاهلوا الوسط.اهـ

أمر بحسن معاملتهم وبرهم والإقساط إليهم في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وهم بهذا النص ونحوه يصرفون النصوص الكثيرة الواردة في الولاء والبراء عن ظاهرها بألوان من التأويل، وهؤلاء على درجات منهم من ضرب أصل الإيمان بمعول التمييع للولاء والبراء فلا يقوم لأصل الإيمان قائمة ولا يغفر لهم البتة إلا بالتوبة وإقامة أصل الإيمان، ومنهم دون ذلك ممن خدش في بعض شعب الإيمان مع بقاء الأصل سالما وهؤلاء أذنبوا والله يغفر لهم عاجلا أو آجلا.

موازنة بين الطائفتين:

من الملاحظ أن الطائفتين أخذتا ببعض النصوص وتركتا البعض الآخر ظنا منهما وجود تعارض بينها، غير أن الطائفة الأولى أقرب إلى الحق من الطائفة الثانية في الجملة؛ لكثرة النصوص ووضوحها وتأخرها وعدم مخالفتها لأصول الإيمان وقد حصل في نسخها نزاع معروف وغير ذلك، كما أن خطأهم يعد من قبيل الخطأ في أدنى شعب الإيمان وهو إماطة الأذى عن الطريق الذي هو من التعامل مع المخلوقين وهو مهم أيضا؛ لأنه من الإيمان وقد ينتمي التعامل مع الكفار إلى شعبة أرفع من إماطة الأذى حسب ما يحتف به ومما يزيد في أهميته أنه وسيلة لنشر الإسلام بمنزلة الإناء للغذاء، فإن كان الإناء جذابا دعا الناظرين لرؤيته ومعرفة ما فيه وتذوقه، وإن كان قبيحا نفر الناس من النظر فيه فضلا عن تذوقه، لكن خطأ الطائفة الثانية وقع في أعلى شعب الإيمان وهو لا إله إلا الله ومنه الولاء والبراء، وقد يكون خطأهم فيما دون ذلك من مكملات الإيمان كحب بعض أهل الفسوق والعصيان قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ وبهذا يتبين أن الطائفة الثانية درجات متفاوتة أيضا.

وخلاصة الأمر: أن خطأ الطائفة الثانية أكبر من خطأ الطائفة الأولى في الجملة، وليس من العدل في شيء أن نساوي بين الأخطاء المتفاوتة!!

تاريخ تمييع الولاء والبراء:

تمييع الولاء والبراء في التاريخ الإسلامي قديم مارسه بعض الخلفاء مع بعض أهل البدع وفعله بعض الخونة مع فلول النصارى لكنها لا تعدو كونها قضايا محدودة خارج السياق العام، وجملتها أخطاء في التطبيق لا في التنظير والتصور، وقد هاجت موجة تمييع الولاء والبراء تحت غطاء (التسامح) والذي استمات في الدفاع عنه (جون لوك) أحد أبرز المنظرين للفكر العلماني الليبرالي؛ حيث كتب وناضل من أجل مفهوم

التسامح وإلغاء مفهوم البراء بكل أشكاله [9]، واتسع هذا الفكر في بلاد أوربا وقد ساهم في انتشاره ردة فعل الناس للطغيان الكنسي واستبداد البابوات الذي ابتليت به أوربا قرونا، فانتقلوا من تطرف إلى تطرف مقابل وهكذا تكون ردود الأفعال في الغالب!

وقد استغل هذا الأمر طائفة من اليهود في تنظيم اشتهر بالماسونية يعد سريا للغاية هدفه هدم الإسلام وسائر الأديان سوى اليهودية - وهو تنظيم قديم – وقد استغل أحفادهم الماسونيون الجدد الموجة الليبرالية لكسر حاجز الولاء والبراء تحت غطاء الحرية و الإخاء والمساواة! [10]

ثم تأثر بهذا الفكر طائفة من المحسوبين على العلم والدعوة وأشهرهم جمال الدين الأفغاني (ت: 1838) الذي يعد البوابة الأولى في تمييع الدين وكسر حاجز الولاء والبراء في البلاد الإسلامية كما أن تلميذه محمد عبده (ت: 1849) - الذي يعد أول من أعاد المدرسة العقلية و الفكر الاعتزالي جذعا - ساهم في تمييع الولاء والبراء مساهمة كبرى [11]، كما أن السنهوري - الذي يعد البوابة الأولى في إدخال القانون اللعين إلى بلاد المسلمين - يعد تمييعه للولاء والبراء لونا جديدا من جهة استجراره للقوانين الكفرية!! [12]

ومازالت تلك الموجات العارمة تزداد يوما بعد يوم حتى فتحت الصحافة أبوابها على مصراعيها للطعن في الولاء والبراء مما لو جمع كلامهم الصريح فيه لاحتمل مجلدا ضخما [13]، وليس مستغربا من هؤلاء الكتاب الليبراليين - ربائب الغرب- ما ترمي به أقلامهم من شرر لتحرق حصن الولاء والبراء، وإنما الاستغراب من علماء بارزين تأثروا بمثل هذه الأطروحات كالشيخ مصطفى المراغي [14]، والشيخ محمد أبو زهرة [15]،

---

9 (?) نقد التسامح الليبرالي (22)

10 (?) في موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة 1-29 - (27/3) ذكرت أن أول من أسس الماسونية هو: (هيرودس أكريبا (ت 44م) ملك من ملوك الرومان) وفي الباطنية عبر التاريخ (1/36) قال: وخراب الهيكل كان في سنة (70م)، دمره قائد روماني اسمه تيتو، وبعضهم يرجع أن نشأة الماسونية هي أقدم من ذلك) ينظر: أحجار على رقعة الشطرنج، والماسونية للشيخ عبدالرحمن الدوسري، وأجنحة المكر الثلاثة (1/287).

11 (?) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية (1/397) التيار العقلي لدى المعتزلة (1/27) العصرانية قنطرة العلمانية (1/7)

12 (?) وموسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة 1-29 - (31/130)

13 (?) ينظر: الحرب على السلفية.

14 (?) ينظر: الولاء والبراء في الإسلام للقحطاني (347)

15 (?) ينظر: الولاء والبراء في الإسلام للقحطاني (347)

والشيخ يوسف القرضاوي [16]، والشيخ سلمان العودة [17]، وقبلهم وبعدهم خلق كثير!! [18]

أسباب تمييع الولاء والبراء:

إن استعراض الأسباب التي دعت كثيرا من المتساهلين إلى تمييع الولاء والبراء يطول بسطها لكثرتها، لكني أجملها في سببين تدور عليهما غالب الأسباب، وهي:

1- الأقيسة الفاسدة 2- المصطلحات الخداعة.

السبب الأول: الأقيسة الفاسدة:

وأعني به أن كثيرا من الشرعيين لُبس عليهم عن طريق الأقيسة الفاسدة، وأحاطوا الأصول الإيمانية بحائط من الشبهات يظنه الناظر إليه قائما على أساس متين فإذا اتكأ عليه المتعب خر كأن لم يكن ثمة حائط، وهكذا من يقيس المسائل الشرعية على أصول باطلة تخر تلك المسائل بخرور أصولها الباطلة، ولهذا نجد كثيرا من القائسين يظنون أن قياس الإسلام بالغرب أو النصرانية قياس صحيح يخرس الألسن ويشل البنان ويحير الأذهان!!، وهؤلاء القائسون منهم من آثر النصوص وتخبط في الرد عليهم بأقيسة فاسدة مماثلة لأقيسهتم نظير من يسأل عن سبب المنع من بناء كنائس في جزيرة العرب مع أنهم يسمحون ببناء مساجد في بلدانهم!! فيجيب بأن سبب المنع هو أن الجزيرة عاصمة الإسلام كما أن الفاتكان في روما- عاصمة النصرانية- يمنعون من بناء مساجد!! وهذا قياس فاسد لا يحصل به المقصود؛ إذ يلزم منه أنهم لو سمحوا ببناء

---

[16] (?) فقد نقل عنه: (إن العداوة بيننا وبين اليهود من أجل الأرض فقط لا من أجل الدين) كما في: موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة 1-29 - (52/496)- وقد رأيت له مقالات تهون من شأن البراء من الكافرين بتسميته للنصارى: أخواننا المسيحيين، وهو-رغم جهوده الكبيرة في الدعوة والفقه- من المتأثرين بالغرب كثيرا في السياسة والاقتصاد بل حتى بعض اختياراته الفقهية البحتة تجده متأثرا بالفكر الغربي كبحثه عن بنوك الحليب وجموده الغريب بأن الحرمة لا تنتشر إلا بالتقام الرضيع ثدي أمه، ولو شربه من غير التقام لم تنتشر الحرمة بينهما! وهو نظير الجمود في التفريق بين التقاء الماء بالنجاسة والعكس مع أنه ممن يفتخر بأنه من أرباب المقاصد!، وفي ظني أنه حاول أن يهضم المفاهيم الغربية فما استطاع كأبي حامد الغزالي حين حاول أن يهضم الفلسفة فما استطاع!! وهو ممن يقدم العقل على النقل فقد قال: (كل متن يتوقف فيه العقل المعاصر لا يخلو سنده من كلام فيه) كما في الموسوعة السابقة. والمقصود أنه بهذا المستوى من التفكير طعن في البراء من الكافرين جهلا منه بالنقل والعقل معا كما سيأتي إيضاحه بمشيئة الله.

[17] (?) الشيخ سلمان العودة في مقاله (بين الولاء الإسلامي والولاء الفطري) قال: (وكل الآيات التي جاءت تحرم موالاة غير المؤمنين فالمقصود بها المحاربون) فقد عمم الكلام -عفا الله عنه- على كل آيات الولاء والبراء بأنها خاصة في المحاربين، والشيخ سلمان - رغم مساعيه المشكورة وجهوده المبرورة، وما يتمتع به من أخلاق فاضلة – وقع في فخ الأقيسة الفاسدة مما سيأتي بسطه- والله أعلم.

[18] (?) خاصة من يعرف بالعصرانيين كأمثال محمد عمارة، وفهمي هويدي وغيرهما، ينظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب (381)

مساجد في الفاتكان فيلزمنا بناء كنائس في جزيرة العرب؟؟ كما يلزم منه جواز بناء كنائس في غير عاصمة الإسلام من بلدان المسلمين!!
وخطأ مثل هؤلاء قريب وهو خطأ في الاستدلال لا في المدلول! على أن بعض الأجوبة قد يلزم منها لوازم كفرية لم يتفطن لها المجيب نظير من يرد على اليهود دعواهم في استحقاق أرض فلسطين بأنهم أول من سكنها فهم أحق بها! فيجيبهم بأن أول من سكنها هم العرب فهم أحق بها من غيرهم بل لا يحق لغيرهم السكن فيها البتة ثم يسرد البراهين في نصرة قوله!! ولم يتفطن هذا المجيب أنه يلزم من جوابه هذا معارضة القرآن الكريم في استحقاق موسى وبني إسرائيل لأرض فلسطين، حينما كتبها الله لهم بقوله: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) وموجب هذه الأقيسة ولوازمها ما لا يحصى من الفساد، ولو أجاب بما قرره ربنا تعالى في مواضع من كتابه لسلم من هذه اللوازم ودحض شبه المخالفين، فإن الله تعالى بين أن علاقة أهل الحق بالحق أقوى من علاقة الجنس والنسب، قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه: (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وقال صلى الله عليه وسلم (نحن أحق بموسى منكم) [19] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ وغير ذلك من البراهين..،
ومنهم من آثر الأقيسة الفاسدة وقدمها على النصوص، ولووا أعناقها أو كسرها بتضعيف سندها من أجل الوصول إلى نتائج أقيسته الباطلة كمن يجيز بناء كنائس في جزيرة العرب وغيرها كما قرره الشيخ القرضاوي وغيره [20].

ومثل هذه الأقيسة الفاسدة لا يقول بها النصارى وغيرهم إذا كانت في غير صالحهم، فهم يملكون أسلحة نووية ولا يحق لنا ذلك، وهم يملكون حق (الفيتو) ونحن لا نملك ذلك، وهم يغزون من يشاؤون ويلزمون بديمقراطيتهم من يشاؤون ونحن لا يحق لنا شيء من ذلك!، بل ولا يقول هؤلاء الغالطون بمثل هذه الأقيسة في مسائل مشابهة لها مثل جواز فتح مراكز للتنصير وفتح دور لنشر الآناجيل وغيرها في بلاد المسلمين كما سمحوا بذلك في بلدانهم!! وكل هذه الأقيسة مبنية على قياس الحق بالباطل وهو قياس مقلوب! ونظيره قياس اليهود البيع على الربا: (إنما البيع مثل الربا) وأخف منه قياس الباطل على الحق وقياس الربا على البيع وهو باطل ثم من أيسر شروط القياس أن يكون الأصل المقيس عليه متفق عليه بين الطرفيين وهذا ما لا يتوفر في دين النصرانية ولا

---

19 (?) صحيح البخاري (5/134) رقم (2004) من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-

20 (?) نُشر في ملحق " الدين والحياة " يوم الخميس 17 جمادى الأولى 1429هـ - العدد 2531، وقد رددت عليه وعلى غيره في مقال بعنوان: الردود الذكية على من جوز بناء الكنائس في السعودية.

القوانين الوضعية، ولو كان مثل هذا القياس صحيحا للزم منه أن يكون الإسلام أنزل في الرتبة من النصرانية والقوانين الوضعية!!؛ إذ معلوم أن رتبة الفرع أنزل من رتبة الأصل المقيس عليه عند جماهير العلماء وغير ذلك مما يطول بيانه.

ومن الأقيسة الفاسدة الزعم بعدم مشروعية قتال الطلب كما قاله جم غفير من المعاصرين كالشيخ الغزالي والقرضاوي و عبدالوهاب خلاف و وهبة الزحيلي وغيرهم وهو مخالف للإجماع والنقل والعقل

وقد سمعت من الشيخ سلمان - حفظه الله مبررا نفيه لقتال الطلب - كلاما مضمونه: أنه لو كان قتال الطلب مشروعا؛ لكان هذا مسوغا لأمريكا في غزوها للعراق، فإنهم سيقولون: لو كنتم – أيها المسلمون- دولة عظمى كأمريكا وعارضتكم دولة كافرة ضعيفة كالعراق لقاتلتموها بحجة قتال الطلب! [21] وهذا قياس فاسد مخالف للنقل أيضا كمن يقيس اللبن على الخمر بجامع أن كلا منهما شراب يعتقد بعض الناس حله بل هو أشنع منه! ونظيره منازعتهم في قتل المرتد قياسا على من ترك النصرانية ودخل في دين الإسلام فإنه لا يقتل ثم يضربون النصوص بعضها ببعض ويلوون أعناقها من أجل الوصول إلى قياسهم الفاسد ولو خالف الإجماع!!

وسر خطئهم أن القياس لفظ مجمل يتناول القياس الصحيح والقياس الفاسد [22]، وهؤلاء ممن تأثر بالأقيسة الفاسدة لتمييع الولاء والبراء وانخدع بشعارات الغرب الزائفة اليوم وأنهم لا يكنون لنا البغضاء فلماذا نبغضهم؟؟ وأنهم يعاملوننا بكذا وكذا فلماذا لا نعاملهم بنفس المعاملة ونحو تلك الأقيسة الفاسدة التي يظنها البعض من العدل، وهي من الظلم والجهل؛ نظير فعل المشركين حينما قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة [23]. وكل هذا في غاية البطلان؛ إذ أن مقتضى العقل والنقل أن الحق والباطل لا يستويان، واستحلال الناس للباطل لا يصيره حقا، بل يبقى الباطل باطلا مهما روج له أهله!!

وما يطرحه بعض المميعين من أننا وطوائف الكفر سواء في كون كلٍ يعتقد صحة عقيدته وليس إجبارنا لهم أولى من إجبارهم لنا ونحو ذلك مما جرته العلمانية من أفكار سفسطائية!!

[21] (?) سمعته منه في برنامجه (الحياة كلمة) أظنه في عام 1429هـ وينظر: الاتجاه العقلاني لدى المفكرين الإسلاميين المعاصرين، لسعيد الزهراني.
[22] (?) مجموع الفتاوى (20/504)
[23] (?) تفسير البغوي (5/317).

والجواب: أنه ليس في ديننا إجبار على اعتناق الدين الإسلامي بالنسبة للكافر الأصلي، بل لو اعتنقه مجبرا لم ينفعه ذلك البتة، ولم تترتب عليه الأحكام، ما لم تخالط بشاشة قلبه الإيمان وهذا مذهب عامة السلف، أما هؤلاء النصارى العلمانيين فيلزمون الدول بديمقراطيتهم مع فسادها بداهة مما لا يتسع المقام لبيانه، وأما مساواة أصحاب المعتقدات المحرفة والخرافية بالمعتقد الإسلامي، وأن كلا يعتقد صحة معتقده ولا يلام على ذلك! فهذا في غاية البطلان أيضا، وهذا الإشكال مبني على أساس باطل - انتحلته العلمانية بشقيها الماركسي والليبرالي - وهو أنه ليس هناك حقائق مطلقة، وإنما هي نسبية تتبع معتقدات أصحابها، ومعناه: أنه لو قال رجل: الواحد نصف الاثنين، وقال آخر: بل الواحد نصف الثلاثة!! فليس ثمة حقيقة مطلقة، وكلاهما محق نسبيا!! وحتى لا يكون الكلام تجنيا أسوق لك بعض كلامهم:

1- يقول محمد عابد الجابري: (إن اعتماد الشك في التفكير الفلسفي، والأخذ بنسبية الحقيقة: هو التسامح بعينه) أهـ

2- يقول تركي الحمد: (لن تكون متقدماً أو صاحب أمل في التقدم؛ إذا قبلت الرأي على أنه حقيقة، والحقيقة على أنها مطلقة وليست نسبية) أهـ

3- يقول يوسف أبا الخيل: (الإيمان بأن للآخرين ذات الحق التي له في إبداء الآراء والتماهي مع يترتب عليها من معتقدات، وما دام ملتزماً بإعطاء الفرصة للآخرين - وإن لم يكن مقتنعاً بذلك - ليدلوا بدلوهم في الشأن الاجتماعي كافة، وإشعاره أن زمن احتكار الحقيقة - بما فيها الحقيقة الدينية - قد ولى زمانه وليس ثمة طريق آخر إلا مشاركة الآخرين وفقاً لنسبية الحقيقة التي يمسك كل طرف بجزء من خيطها) أهـ [24]

وغيرها من النماذج، وإذا تبين ضعف مذهبهم من الأساس، وهو يعود إلى مذهب السفسطائية العندية المذهب الذي سخرت منه القرون عاد جذعا.

ثم لو قالوا أن هناك حقائق ثابتة، وخالفوا مذهب أسيادهم في الغرب، وأن ما يعتقده الإنسان قد يكون حقا مطلقا أحيانا، وقد يكون نسبيا أحيانا أخرى، وقد يكون باطلا أحيانا ثالثة، غير أن الأفهام البشرية

[24] (?) وقد انبرى عدد من الباحثين الشرعيين في تفنيد (نسبية الحقيقة) عند الليبراليين وذكروا نماذجا من كلامهم وقد استفدت منهم فيما ذكرته من نماذج وغيرها، ويمكن الرجوع إلى كتاباتهم لأهميتها وهي: 1- الحقيقة النسبية..أفيون العقيدة للماجد. 2- نسبية الحقيقة في الفكر الليبرالي للسليم. 3- ثقافة التلبيس (9): قولهم بـ (نسبية الحقيقة) للخراشي 4-مجموع الفتاوى لابن تيمية (19/135-151).

مختلفة، ولهذا نجد الطرفين أو الأطراف كل منهم يزعم أنه على الحق المطلق وما سواه على الباطل المحض، وليس أحدهما بأولى من الآخر!!، وقريب من هذا ما يقوله د.محمد جابر الأنصاري في كتابه تجديد النهضة: (يجب أن يكون واضحاً في غاية الوضوح: أن المطلق مطلق، ولكن الفهم البشري والتفسير البشري لأي جانب من جوانب المطلق هو فهم نسبي) [25].

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أنه ينبغي أن نعلم أنه لا يمكن أن تكون الأمور المتناقضات كلاها على حق- لا كليا ولا جزئيا- كما في التوحيد والشرك؛ يوضح ذلك أنهما نقيضان لا يجتمعان و لا يرتفعان ولا يمكن أن يقال: إن الحق يتعدد أو يتجزأ في هذا الموضع؛ إذ تعدد الحق باطل أصلا لاستحالة وجوده بين المتناقضات كالتوحيد والشرك، كما أن أصل التوحيد لا يقبل التجزئة، فهو إما أن يتحقق فيكون صاحبه في عداد الموحدين أو لا يتحقق فيكون صاحبه في عداد المشركين وليس ثمة منزلة ثالثة إلا على مذهب المعتزلة مع أنهم لا يرون تجزئة الحق كما هو معروف، وأما أهل السنة فيرون مبدأ تجزئة الحق فيما يقبل التجزئة، ولهذا يرون تفاوت المسلمين في كمال التوحيد، أما أصل التوحيد فلا يتجزأ البتة، ونظير هذا لو اختلف رجلان في شخص في نفس اللحظة، فقال أحدهما: هو حي حياة طبيعية، وقال الآخر: هو ميت، فلا يمكن أن يتعدد الحق هنا ولا أن يتجزأ، وبالإيمان تحيى الروح وتستنير به كما أنها تموت بالشرك وتظلم به قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام، 122] وإن كان الحق قد يتجزأ فيما إذا لم يصب الحق كله كما لو اختلفوا في رجلين، فقال أحدهما: هما حيان، وقال الآخر: هما ميتان، فقد يصيب أحدهما ويخطئ الآخر، وقد يصيبان كلاهما من وجه دون وجه فيكون الحق جزئيا.

وإذا تقرر التناقض بينهما، فلا يخلوا: إما أن يكون التوحيد حقا والشرك باطلا، ففي التسوية بينهما ظلم للتوحيد!، أو يكون العكس ففي التسوية بينهما ظلم للشرك!!، وفي هذا القدر إبطال للتسوية بينهما. وبالتالي نعلم أن بيان بطلان أحدهما يلزم منه صحة الأخر، كما أن بيان صحة أحدهما يلزم منه بطلان الآخر، كما هو الحال في المتناقضات.

---

[25] (?) تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، د. محمد جابر الأنصاري، ص83 بواسطة: مقال سليمان الخراشي بعنوان: ثقافة التلبيس (9): قولهم بـ (نسبية الحقيقة).

الوجه الثاني: أنه معلوم عند العقلاء قاطبة أن المعتقدات في الأذهان ليست على درجة واحدة قوة وضعفا، فمنها القطعي وجودا وعدما ومنها الظني الراجح وجودا وعدما ومنها المستوي الطرفين غير أنها في واقع الأمر إما حق وإما باطل لا غير، ألا ترى أنه لو أتاك خبر بوجود (مطر) في مكان ما، فإما أن تقطع بوجوده أو تقطع بعدمه أو تظن وجوده أو تظن عدمه أو يستوي عندك الأمران مع أنه في حقيقة الأمر إما موجود أو غير موجود والخبر فيه إما حق وإما باطل لا غير، فمن تجاهل ما يقع في الأذهان لم يعذر أحدا قط ويشبه هذا حال أهل القانون الذين يقولون: (القانون لا يحمي المغفلين) وقريب منهم من لا يعذر بالخطأ والجهل والنسيان والإكراه والتأويل السائغ، وفي هذا شدة وإن كان له ثمرة أحيانا، ومن تجاهل ما في الواقع وحقيقة الأمر ولاح في ناظريه ما يقع في الأذهان فحسب فسيؤدي به ذلك إلى أن يعذر كل أحد في كل معتقد مهما ارتفعت أعلام فساده ووضحت رايات خرافته، وستكثر السفسطة والزندقة والإلحاد، وتظهر الفوضى العلمية والأخلاقية، وترفع معاول الجدل ومكابرة العقول، وستنتشر الخرافة والأساطير من عبادة الفئران والجرذان وعبادة الفروج و ما لا يحصيه إلا الله تعالى ولا تثريب عليهم في معتقداتهم كما أنهم لا يثربون على غيرهم وكل هؤلاء معذورون؛ لأن كل واحد يعتقد فعله صوابا وهذه حقيقة الليبرالية وكلاهما ضلال مبين ؛ والحق وسط بينهما، إذ فرق بين من ينكر ما قامت براهين صحته ضرورة ونقلا وعقلا كعلو السماء ووجود القمر وإحراق الشمس وضرر الخمور وخطر السرقة ونحوها من الأمور الضرورية أو العقلية ولا ينكر مثل ذلك إلا مكابر سفسطائي وبين من ينكر ما لم تقم براهين صحته أو كانت براهينه محتملة كمن ينكر كوكب (بلوتوا) أو أن عدد الكواكب إحدى عشر أو أن الجزيء أصغر مخلوق ونحو ذلك، ولما تعذر القطع بالجهل من عدمه على البشر جعلت القرائن التي تعطي ظنا غالبا في مقامها، وما زال الناس يعملون بالقرآئن الراجحة والاستدلال بما ظهر على ما بطن من العلماء والقضاة والقافة والأطباء وسائر العقلاء، وهذا المعيار العادل بين ما يخفى عادة وما لا يخفى عادة يعد معيارا عقليا ونقليا في أحكام الدنيا، أما أحكام الآخرة فالجاهل معذور حتى يمتحن يوم القيامة والعالم بها مأزور مطلقا ومأواه جهنم وساءت مصيرا.

وبهذا يتضح أن من يقول بالعذر بالجهل في المعتقدات بإطلاق ومن لا يقول بالعذر به بإطلاق دون تفريق بين خفاء المعتقد وظهوره كلاهما مخطئ مخالف لأبجديات العقول وكلاهما ظالم للحقيقة مضيع لها، وظالم لمن ينكر ما يجوز أن يخفى بقياسه على من ينكر ما لا يجوز أن يخفى كالضروريات أو العقليات الواضحات، وهذا موافق للعقول

الصريحة كما ترى؛ إذ العقلاء قاطبة يفرقون بين من ينكر الشمس وبين من ينكر كوكب بلوتوا، ويفرقون بين من ينكر ضرر الخمور وبين من ينكر ضرر الغازيات، ويفرقون بين من ينكر فائدة التمر والزيتون والبرتقال وبين من ينكر فائدة الأفوكادو والاسكدنيا والبوملي!!

ومعلوم أن الله تعالى- وله الحكمة البالغة- لم يترك عباده هملا بل نصب لهم الحجج والبراهين الضرورية والنقلية والعقلية على فساد الشرك أكثر مما نصبها على فساد الربا والزنا وشرب الخمور؛ لشدة حاجة الثقلين إليها أكثر من حاجتهم إلى غيرها!! كما قال الأول:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولهذا لم يعذر- سبحانه وتعالى- بالجهل بالمعتقدات الظاهرة كالتوحيد في أحكام الدنيا لأنها من الوضوح بمكان لا يخفى على كل عاقل مع وجود داعي الفطرة وكثير من الكفار يقطعون بأن الله خالق للسماوات والأرض وغيرها ومن لا يصرحون بذلك تجدهم يعزونه إلى قوى وراء الطبيعة أو ما تسمى بـ (الميتافيزيقيا) وغاية دعواهم الجهل، ومن علم حجة على من لم يعلم، وإلا لو تأملوا قليلا لعلموا أن هذه القوة التي خلقت الطبيعة بهذا الإتقان تدل على القدرة والحكمة ولا يمكن للقادر الحكيم أن يترك من خلقهم هملا لا ينصب لهم براهين ربوبيته و ألوهيته وما حصل من إلحاد في أوربا وغيرها إما ردة فعل للطغيان الكنسي أو تقليد أو هوى وتجدهم قليلين مذبذبين حائرين لا تكاد تجد أحدا منهم يجزم بمذهبه الإلحادي، فهذا أشهر الملاحدة في القرن التاسع عشر (كارل ماركس) يصفه أحد أتباعه (أوتورهل) (بأنه كان على الدوام متقلبا مبتئسا حقودا لا يزال في تصرفه عرضه لتأثير سوء الهضم والإنتاج وهياج الصفراء وكان موسوسا يغلوا كجميع الموسوسين في متاعه الجسدي)[26] و الإلحاد وهم مخالف للفطرة والعقل والعلم وإنكار الخالق - سبحانه- أعظم من إنكار عقول الناس لأن آثاره أكثر بكثير من آثار العقول.

والحاصل أن الكفار ما بين ملحد مكابر أو غير ملحد فيلزمه أن لا يعبد غير الخالق سبحانه وتعالى!!

والمقصود أن براهين ربوبيته وألوهيته من العقليات الواضحات، ومن أمور الفطرة، ودعوى الجهل فيها غير مقبولة البتة؛ لأن مثل هذه الأمور لا تجهل عادة، وحجة الملاحدة داحضة مخالفة لنواميس الحياة، وإنما تصدر عن عالم بها فيكابر كما قال تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) أو تصدر عن عالم بها فاجتالته الشياطين وصده الهوى فضل

---

[26] (?) السرطان الأحمر (26)

السبيل كما قال تعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾، ومن شذ وجهل بعد ذلك فنادر والنادر لا حكم له ومثل هذا كما قال الأول:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

أما ما يجهل عادة مثله فهو معذور كما يعذر الإنسان بجهله بالفروع التي يمكن لمثله الجهل بها لخفائها والكلام عنه يطول.

وإذا تقرر وضوح التوحيد وظهور فساد الشرك بالله تعالى، علم أن المساواة بين ما ظهر فساده وبين ما ظهر صلاحه مساواة باطلة لا تقبلها العقول المستقيمة، ونظير هذا أنك لو أعطيت أولاد جارك شراب (اللبن) بعد أن سمح لك جارك بذلك، فليس هذا مبررا لجارك أن يأتي في اليوم التالي بقوارير من خمر ليعطيها أولادك ولو كان مقتنعا بنفع هذه القوارير ويرى حلها!!، وقد ضرب الله الأمثال في القرآن على فساد الشرك في غاية البيان فقال سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا من أبين البراهين العقلية على فساد الشرك وعقيدة التثليث، حيث لا يستوي من يعبد الواحد سبحانه ومن يعبد أكثر من معبود قال تعالى: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ وغيرها من الأمثال. وقريب من هذا لو كان لشعب واحد أكثر من ملك كل يريد الملك لنفسه خاصة، وشعب آخر له ملك واحد هل يستويان مثلا؟؟ كلا؛ إذ طاعة أكثر من ملك في أمرين متناقضين غير ممكن البتة والعاقل لن يطيع سوى القادر منهما الذي بيده مقاليد الأمر لا العاجز!! فآل الأمر إلى واحد!! مع أن العادة جرت أن الملك القادر لن يدع العاجز حتى يزيله، وكذلك من يعبد إلهين أو أكثر لا يخلو إما أن يكونا عاجزين معا أو أحدهما، والعاجز الذي لا يدفع الضر عن نفسه وعن غيره فلا يستحق العبادة حينئذ وإنما يستحقها ملك الملوك القادر وهو الله الواحد الأحد.

والمقصود أن هؤلاء دخل عليهم الغلط من جهة قياس المسلم على الكافر بصرف النظر عن صحة المعتقدات، وبهذا جعلوا الحق وأهله والباطل وأهله سواء وظنوا أن هذا مقتضى العقل و العدل!!مثل منع بناء الكنائس في بلدان المسلمين وجواز قتال الطلب ونحوها، ثم من هؤلاء مَن مقتضى كلامه أن الشرع أمر بقتال الطلب ومنع من بناء الكنائس وإن خالف العقل والعدل، ومنهم من رد الشرع؛ لأنه لا يمكن أن يخالف العقل والعدل!! وكلاهما مخطئ من وجه دون وجه، ومعلوم أن المقصود من قتال الكفار ومنع بناء كنائسهم ونحوها هو إزالة الظلم وإقامة العدل والإحسان في الأرض، ولا يستريب عاقل أن إزالة الظلم

وإقامة العدل والإحسان واجب مأمور به فكيف يصبح إزالة الظلم من الظلم؟؟ لا يمكن ذلك إلا بتجاوز الحد المشروع كالتمثيل بالمقاتلين أو كقتل غير المقاتلين من رجال ونساء وصبيان!!، وعليه يتضح أن العدل يوجب دحر الظلم!!، ولو قدم هؤلاء ما قدمه العقل والشرع من تقديم الحق على الباطل لاستبان لهم الطريق وانكشفت عنهم الأوهام!!

السبب الثاني: المصطلحات الخداعة [27]:

رشقت المجتمعات الإسلامية بوابل من المصطلحات ليل نهار انخدع بها كثير من الناس، مع أن السلف الصالح أسسوا قاعدة متينة في التعامل مع المصطلحات الوافدة، وهو أن كل مصطلح وافد يعرض على الكتاب والسنة فما وافقه قبل وما خالفه رد، وما احتمل حقا وبطلا كالألفاظ المجملة لاشتراكها أو لأن لها معنى في العرف يختلف عن معناها في وضع اللغة ونحو ذلك فلا يقبل ولا ينفى وإنما يستفصل، فيقبل القدر الموافق للحق ويرد القدر الموافق للباطل.. [28]

ويكمن خطر مثل هذه المصطلحات في جعلها مقدمة للباطل، كجعل المساواة مقدمة عقلية لتجريم كل أنواع التفريق - كالتفريق بين المسلم والكافر، والمرأة والرجل، والحق والباطل - ولا يمكن المنازعة العقلية في هذه النتيجة مع التسليم بالمقدمة إلا بنوع من المكابرة؛ لأن اللفظ العام يتناول كل فرد من أفراده، وحتى من خصصها بالشرع يظن أنه لولا ورود النص لكان مقتضى العقل التسوية بينهما. ولا يمكن الجواب عنها جوابا جذريا إلا بالقدح في تلك المقدمة الباطلة! وهو أن الله لم يأمر بالمساواة بإطلاق كما لم ينه عنها بإطلاق؛ وإنما أمر بالعدل، وبينهما فرق لا يهتدي إليه الشهوانيون؛ إذ العدل هو المساواة بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين [29]، ومن فرق بين المتماثلات فقد ظلم كمن يساوي بين المختلفات!! فمن يفرق بين العالمين والجاهلين والمجتهدين من غير فرق فقد ظلم كمن يساوي بين عالم وجاهل ومجتهد وغير مجتهد وأعمى وبصير..!!.

---

[27] (?) وقد عقد حبنكة الميداني بابا في (خداع الشعارات) في كتابه كواشف زيوف (217) وما بعدها وكلامه نفيس لم أره إلا بعد الفراغ من كتابتي هذه.

[28] (?) قال أبو العباس ابن تيمية -رحمه الله- في درء التعارض (1/42): (ولهذا كان سلف الأمة وأئمتها يجعلون كلام الله ورسوله هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه فيثبتون ما أثبته الله ورسوله وينفون ما نفاه الله ورسوله ويجعلون العبارات المحدثة المجملة المتشابهة ممنوعا من إطلاقها: نفيا إثباتا لا يطلقون اللفظ ولا ينفونه إلا بعد الاستفسار والتفصيل فإذا تبين المعني أثبت حقه ونفي باطله بخلاف كلام الله ورسوله فإنه حق يجب قبوله وإن لم يفهم معناه وكلام غير المعصوم لا يجب قبوله حتى يفهم معناه)

[29] (?) مجموع الفتاوى (20/505) إعلام الموقعين عن رب العالمين (2/2)

ومما يقضى منه العجب مسايرة كثير من أهل العلم الشرعي لأهل الأهواء في مصطلحاتهم ويستخدمونها في سياق ما استخدمها فيه أهل الباطل دون تحرير لها أو تمحيص بعرضها على الكتاب والسنة، وربما زعم بعضهم أنها من صميم الإسلام!! فتراه يقول: الإسلام يحارب الطائفية، ولا يرضى بالإقصائية، وينافح من أجل المساواة والتسامح والحرية!! ويعني بها نفس ما يعني بها أهل الأهواء...

وفي الجملة: فإن المصطلحات المستعملة عند أهل الباطل على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: مصطلح لا يحمل مدحا ولا ذما في أصل الشرع واللغة كالطائفية [30] ونحوها كقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بينهما﴾ [الحجرات: 9]، وقد يمدح أهل الطائفية إن أريد بها طائفة من أهل العلم كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: 122] أو طائفة أهل السنة في مقابل أهل البدعة وغيرها مما يكون وصف الطائفية مدحا لا لذاته وإنما بحسب الإضافة، كما أنه قد يكون مذمة إذا كان يستعمل بعكس ذلك

كما في قوله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وكفروا آخره﴾ [آل عمران 72]، ولهذا ينبغي للمسلم أن يستعمل من الألفاظ الشرعية واللغوية ما يدل على المراد مباشرة، ولا يستعمل ما يحتمل معنى صحيحا وباطلا إلا بإضافة مبينة له قاطعة في المعنى المراد.

النوع الثاني: مصطلح له معنى في الشرع أو في اللغة مما يمدح أو يذم، فالأصل أن يطلق اللفظ على ما يناسبه، لكن إذا كان بعض أهل الباطل يستعمله لمعنى باطل عرف عندهم فينبغي بيان المراد منه أو تغييره إن كان مجرد معنى لغوي كما أمر الله المؤمنين أن يغيروا كلمة (راعنا) إلى كلمة (انظرنا) لما كان اليهود يستخدمونها استخداما سيئا مع النبي- صلى الله عليه وسلم- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ [البقرة: من الآية 104] [31] ونظير ذلك كلمة (التسامح) وكلمة (الحرية) ونحوهما من الكلمات التي لها معنى محدد في الشرع أو في اللغة غير أن أهل الباطل يذكرونها ويقصدون بها تمييع الولاء والبراء أو التمرد على شريعة الله، أو غير ذلك من المعاني الباطلة.

---

30 (?) حرب المصطلحات00من معاداة السامية إلى الطائفية /د محمد السعيدي.نشر في شبكة فلسطين للحوار في تاريخ 6/5/2011م

31 (?) ينظر: تفسير ابن كثير (1/373)

النوع الثالث: مصطلحات مجملة تحتمل حقا وباطلا، فلا تقبل بإطلاق ولا ترد بإطلاق، وإنما يستفصل فيها كالمساواة ونحوها. وهذا في المصطلحات والألفاظ المفردة، لكن الإجمال في كلام العرب- إن وجد- فهو قليل؛ لأن العرب لم تتكلم بغير الجمل، وهو في كلام الله ورسوله ممتنع؛ لأن ما يقع من الإجمال سببه استخدام لفظة في غير موضعها الصحيح، وقد يحصل في الأفهام لا في حقيقة الأمر ومن ذلك ما يقع حينما لا يفرق بين ما يراد به الإطلاق وبين ما يراد به الاستغراق نظير الإيمان والكفر والمساواة وغيرها قد يراد بها مطلق الإيمان ومطلق الكفر ومطلق المساواة فتفيد الإطلاق كما قد يراد بها الإيمان المطلق والكفر المطلق والمساواة المطلقة فتفيد الاستغراق، ويتحدد ذلك بالقرينة والسياق.

البراهين العقلية على وجوب بغض الكافرين:

وبما أن كثيرا من المميعين للولاء والبراء يجادلون في بغض الكافرين وتوهموا مخالفتها للعقول الصريحة فطفقوا في تأويل النقول الصحيحة، وتالله لقد خالفوا المنقول وغلطوا في المعقول، فكيف إذا كانت كل آية وحديث تنطق بحجة عقلية لو كانوا يعقلون؟؟

وقد حان الأوان لعرض البراهين العقلية على بغض الكافرين لترى موافقتها للبراهين النقلية وهي كالآتي:

البرهان الأول: أن العقلاء متفقون جميعا - مؤمنهم وكافرهم- على بغض الباطل وأهله، ومحبة الحق وأهله، وهذه حقيقة الولاء والبراء؛ حيث نحب الحق وأهل الحق - وهم المؤمنون عندنا - ونبغض الباطل وأهل الباطل - وهم الكافرون عندنا – وهذا يلزم كل مسلم يؤمن أن دينه الحق وما سواه الباطل. ومن لم يؤمن بذلك أو شك فيه فهو كافر باتفاق المسلمين.

وأذكر أن أحد الأخوة اتصل علي بالهاتف ذات يوم وأخبرني أنه حصل بينه وبين أحد النصارى نقاش في غرف (البالتوك)، ومن ضمن ما قاله النصراني لصاحبي: أنكم أيها المسلمون لا تحبون اليهود ولا النصارى وليس في كتابكم ما يدل على حبكم للأديان الأخرى، فقال له صاحبي: بل هناك آيات تدل على ذلك ولكن أمهلني حتى أسأل من هو أعلم مني فاتصل بي ملتمسا آيات تدل على أننا نحب اليهود والنصارى!! فأغلظت عليه القول لدخوله في نقاش لا يحسنه، وقلت له: فإن أبيت إلا النقاش فتزود بالعلم الشرعي حتى تصير ضليعا وحينها أفعل ما تشاء، وأما

بالنسبة لسؤالك فأخبره أننا - نحن المسلمين - ليس عندنا تعصب لنسب أو عرق دون آخر، وأما اليهود والنصارى فلا يخلوا حالهم إما أن يكونوا على باطل أو على حق، فإن كانوا على باطل فنحن نكرههم بلا ريب لا من أجل جنسهم وإنما من أجل باطلهم وهم عندنا كذلك، وإن كانوا على حق فنحن نحبهم؛ لأننا نحب الحق وأهله، ولهذا نحب موسى - عليه السلام- وبني إسرائيل الذين اتبعوه على الحق، ونحب عيسى- عليه السلام- والذين اتبعوه من النصارى الذين كانوا على الحق وهم الحواريون، ولما بدلوا الحق بالباطل لم نعد نحبهم؛ لأننا لا نحب الباطل وأهله!!

أما بالنسبة لليهود والنصارى المعينين كزيد اليهودي أو عمرو النصراني.. فقد يحبون حبا فطريا لقرابة ونحو ذلك وإن كنا نبغضهم كبغضنا للباطل الذي يحملونه، ولهذا قال تعالى عن نبيه: (إنك لا تهدي من أحببت) قيل: أحببته لقرابته، وأكثر أهل التفسير على أن المعنى أحببت هدايته، وهو يؤول إلى نفس المعنى الأول؛ لأنه من المقطوع به أن النبي- صلى الله عليه وسلم- يحب هداية الناس جميعا، وتخصيص حب الهداية لعمه يدل على وجود مزية له دون غيره، وهو أنه يحبه لقرابته ودفاعه عن الحق، ومن أجل ذلك سأل الله له تخفيف العذاب عنه يوم القيامة.

ولهذا أباح الله الزواج بالكتابية ويستحيل الزواج ابتداء واستمرارا إن لم يكن بدافع حب فطري، كما أن عموم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21] يتناول الزواج بالكتابية كما يتناول الزواج بالمسلمة، لكنه قد يكون ذنبا ينقص به إيمانه بحسبه فيما إذا قدم حبه الفطري على شيء من محاب الله تعالى كما فعل حاطب - رضي الله عنه- ..

والمقصود أن كل مسلم يقر بأن دين الإسلام هو الحق وما سواه من الأديان الأخرى باطلة محرفة يلزمه بغض أهل الباطل كما يلزمه حب أهل الحق.

البرهان الثاني: أن الفطر جبلت على كره الجاحدين الذين يقابلون العرفان بالجحود والكفران، ويكافئون الإحسان بالإساءة والنكران حتى لو لم تربطهم بالمحسن والجاحد أي صلة!!، ولو رأيت كريما أعطى غيره ألوانا من النعم ثم قابلها الآخذ بالجحود واللؤم، لكرهته وأبغضته ولو لم تعرفهما جميعا، فكيف إذا كان ذلك الكريم محبوبا لك ويعز عليك إساءته؟؟

لا شك سيزداد كرهك لمن جحد فضله وأنكر نواله!! فكيف إذا كان هذا الكريم المتفضل الجواد هو الله جل جلاله الذي هو أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا وأهلينا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، فلا ريب أنه سيزداد البغض لذلك المنكر الجاحد اللئيم، فكيف إذا كان ذلك الكرم الذي تفضل الله به على الناس لا يمكن عده في العالمين ولا حده؟؟

وهل يريدون منا أن نحب الكافرين الذي جحدوا نعم المولى المعبود وآلائه؟؟ بل ونتهم في بغضنا لهم بالطائفيين والإرهابيين... فبأي عقل يفكرون؟؟ وبأي منطق يتحدثون؟؟ هل يستوي الشاكرون والجاحدون؟؟ ألا ساء ما يحكمون!!

والمراد أن الله قد تفضل على الناس جميعا بفضائل لا حدود لها ومع ذلك جحدت نعمه طائفة من البشر ووصفهم الله بالكفر الذي هو بمعنى الجحود فلا يوالون ولا يحبون بل يكرهون!

البرهان الثالث: أن النفوس تكره الظلم والظالمين وتحب العدل والعادلين، والكفار هم الظالمون عندنا قال تعالى: ﴿وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾وغيرها من الآيات التي تدل على أن الكافرين هم أعظم الظالمين؛ وليس هذا زعما فارغا أو بهتانا باطلا، وإنما هو موافق للمنطق العقلي أيضا؛ يوضح ذلك أن تعريف الظلم المشهور: هو وضع الشيء في غير موضعه. وهؤلاء وضعوا العبادة في غير موضعها، وصرفوا الأفضال إلى غير مسديها، وجعلوا العرفان في غير أهله، فشكروا غير الله، وذكروا غير الله، ونسبوا ألوان النعم لغيره بفعلهم وعبادتهم ومحبتهم وهذا أعظم الظلم وأقبحه، وإن لم يكن هذا ظلما فأي شيء هو الظلم؟؟ وإذا تقرر ظلم الكافرين فالعقلاء قاطبة لا يحبون الظالمين!

البرهان الرابع: أن الكافرين أعداء لله تعالى؛ حيث جعلوا له أندادا من خلقه في صفاقة عريضة ما بعدها صفاقة فما قدروا الله حق قدره، بل تجرؤا على مبارزته بالجحود والنكران ومجابهته بأعظم العصيان... ولا ريب أن من كان عدوا لله الذي هو أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا وأهلينا فهو عدو لنا من باب أولى كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1] وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [2 \ 98] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ

يُوزَعُونَ﴾ [41 \ 19] ومن كان عدوا لله فلا يمكن أن نحبه البتة؛ لأنهم معتدون على الخالق عز وجل، والله ورسوله والمؤمنون لا يحبون المعتدين! قال تعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

البرهان الخامس: أنه من البدهي أن يكره المؤمنون أعداءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ [النساء: 101] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1] فجعل من موجب كرههم عداوتهم للمؤمنين وهذا موافق للعقل والفطر؛ إذ من عادة الناس بغض أعدائهم! فكيف إذا كانت عداوتهم مبنية على العداوة بين الحق والباطل؟؟ ولهذا ذكره الله بصيغة العجب من صنيع بعض المؤمنين؛ إذ كيف يحب المؤمنون اليهود مع كره اليهود لهم فقال: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قال العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير [32]: "فالعجب من محبة المؤمنين إياهم في حال بغضهم المؤمنين، ولا يذكر بعد أسم الإشارة جملة في هذا التركيب إلا والقصد التعجب من مضمون تلك الجملة."

فإن قيل: فقد وصف الله تعالى من يحب اليهود بالإيمان وقد تقرر أن حب الكفار من نواقض الإيمان!! فكيف الجمع بينهما؟؟

والجواب: أن علماء التفسير متفقون قاطبة على أن المؤمنين لم يحبوا اليهود وغيرهم من المشركين الحب الديني المخرج من الملة [33]، وإنما اختلفوا في تأويل الآية على ثمانية أقوال أقربها للصواب- والله أعلم- أن يكون المراد بالحب الصادر من المؤمنين هو الحب الفطري لقرابة أو حلف ونحوه وهو في الأصل جائز لكن إما أن يكون حصل التوبيخ من أجل أن حب الأنصار الفطري لم يثمر محبة من اليهود بل قابلها بغض منهم وعداوة ظاهرة!! أو يكون حصل الإنكار والاستغراب من أجل تقديم هؤلاء الأنصار حبهم الفطري على حبهم الديني في أمر لم يصل إلى حد الكفر نظير ما حصل من حاطب - رضي الله عنه- مع المشركين ومع هذا وصفه الله بالإيمان، ويؤيد كون الحب الصادر منهم هو الحب الفطري أنها نزلت في قوم من الأنصار مازالوا يحبون اليهود لما بينهم من الحلف قبل الإسلام. وهذا التأويل مأثور عن ترجمان القرآن ابن عباس- رضي الله عنه- [34] و ادعاؤهم الإيمان بالله تعالى مع ظهور

---

32 (?) التحرير والتنوير (3/201)
33 (?) ينظر: تفسير الطبري (7/151)، تفسير الخازن (1/410) الوجيز للواحدي (1/229) تفسير ابن كثير (1/489) تفسير ابن أبي حاتم (3/150) تفسير الرازي (1/1239) وغيرهم
34 (?) زاد المسير (1/447) تفسير البحر المحيط (3/31) تفسير الرازي (1/1239)

علامات الكفر بالله فيهم وظهور عداوتهم للمؤمنين كما هو حال المنافقين الذي فضح الله أمرهم وكشف سترهم فلا قيمة لتلك الدعوى حينئذ، ومع هذا لم يقتلهم النبي- صلى الله عليه وسلم- مراعاة للمصلحة الراجحة.

البرهان السادس: أن كثيرا من الأديان والمذاهب المعاصرة تمارس البراء مع من لا ينتحلون مذاهبهم وخاصة مع المسلمين؛ حيث يجعلون من يخالف مذهبهم منتهكا للحقوق الإنسانية، أو إضرارا بالمصالح العالمية، أو إرهابيا يجب القضاء عليه، وقد سمعنا تصريح بوش الصغير يقول أمام العالم: (أكره الإرهاب) ويوجه أصابع الاتهام نحو الإسلام والمسلمين! فإن لم تكن هذه الصورة (براء) فأي شيء هو البراء؟؟ بل يا ليتهم اقتصروا على مجرد البغض القلبي لكان الأمر هينا ولكنهم سفكوا دماء مخالفيهم وسحقوهم في معارك طاحنة لم يشهد لها العالم مثيلا!!

وأما نحن فمنصفون مع الإرهاب والإرهابيين فإن كان المراد به ما يقوم به بعض الناس من تدمير وتفجير يخالف تعاليم الحق سبحانه فنحن نكره الإرهاب وأما الإرهابيون أنفسهم فلنا مقياس دقيق نرجع إليه الأمور فمن انتحل الدين الحق الذي هو الإسلام فنحبه في الأصل لما معه من أصل التوحيد ونكرهه لما فعله من العنف غير المشروع، بل ويشرع قتاله كما هو مقرر في موضعه.

أما إن كان الإرهابي الذي يمارس العنف والتفجير كافرا فنكرهه لظلمه العظيم اتجاه خالقه الذي هو أعظم الظلم كما نكرهه لإرهابه كما يشرع قتاله لذلك كما هو مبسوط في موضعه. وما ارتكبه المسلمون من أخطاء فيما يسمى بقضايا الإرهاب يعد جرما كبيرا غير أن ما ترتكبه الدول الكافرة من الصد عن سبيل الله وكفرها بالله تعالى وإرهابها وقتلها للآمنين كل ذلك أعظم مما ارتكبه بعض المسلمين من أخطاء قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 217].

والمقصود أن طائفة عريضة من الكفار يمارسون البراء من الإسلام وغيره مع من يخالف معتقداتهم ومع هذا لا يوصفون بعشر ما يوصف به أهل الإسلام بل يجعل لهم الحق في توجيه أصابع الاتهام لكل من خالفهم!!

البرهان السابع: أن الحق والباطل نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، ويلزم من حبنا للحق كله بغضنا للباطل كله والعكس؛ إذ لا يبغض الإنسان

الشيء إلا بحب ضده، ولا يحب الشيء إلا ببغض ضده، لكن الحب هو الأصل والبغض ضد له متفرع عنه؛ فعبادة الله تعالى تعنى كمال محبته، وضدها عبادة غيره أو الإشراك معه وهو الكفر، ولولا الإيمان ما وجد الكفر؛ إذ هما نقيضان لا يجتمعان ولهذا قال تعالى: ﴿وماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ وهل يصح عند العقلاء أن نتخلى عن الحق المبين؛ لأنه يلزم منه كره الباطل وأهله الكافرين؟!!، ولهذا نجد أن أصحاب الباطل يكرهون أصحاب الحق عبر التاريخ والعكس ولا ينكره إلا مكابر!

ولا يمكن لليبراليين أن يقولوا: نحن نحب الحق والباطل معا؛ لأن هذا من التناقض الذي يأباه العقل والواقع كمن يحب الموت والحياة والعمى والإبصار والحركة والسكون في آن واحد!!

ولا يعترض على ذلك ما يوجد في الشخص الواحد من حق وباطل؛ إذ مثل هذا ممكن؛ لأن الحق شعب وأجزاء - وإن كان لا يتعدد - ؛ والحديث إنما هو فيمن اتصف بكل شعب الحق والإيمان فيستحيل أن يتصف بشعبة من شعب الباطل والكفر!!، وقد علم الله قصور البشر وعدم كمالهم؛ حيث قد يرتكب أهل الحق بعض شعب الباطل، وإنما العبرة بالشعبة العليا - شعبة لا إله إلا الله- فمن حققها فهو في عداد العادلين وإن حصل منه ظلم، ومن فرط فيها فهو في عداد الظالمين وإن حصل منه عدل، ولهذا فمذهب أهل السنة أنه قد يصدر من صاحب الحق باطل ينقص من الحق بحسبه لكنه يغتفر له ذلك عاجلا أو آجلا لوجود أصل الحق وأعلى شعب الإيمان، كما أنه قد يصدر من صاحب الباطل حق ينقص من الباطل بحسبه لكنه لا يغتفر له بذلك لوجود أصل الباطل وأعلى شعب الكفر إلا بالتوبة منه، وهذا بخلاف مذهب الخوارج والمرجئة الذين عندهم أن الحق جزء لا يتجزأ!!

البرهان الثامن: أن غاية دعواكم أن من أحب المؤمنين وكره الكافرين فهو طائفي رجعي إقصائي.... وهي مجرد دعوى خالية من البرهان، والجواب بعكس هذه الدعوى وهو أن من لم يحب الحق وأهله ويكره الباطل وأهله بل كره المؤمنين لما يصفهم به من أوصاف تنفر الناس عنهم، وأحب الكافرين ودأبه كيل المديح لهم فهو من المتخلفين الإرهابيين الرجعيين الإقصائيين الذين يكرهون الحق من أجل إرضاء الباطل، وليست دعوانا دون دعواكم بل هي أولى وأحرى عقلا وفطرة والحق أحق أن يتبع.

البرهان التاسع: أن الليبراليين ومن شابههم يزعمون الإنصاف وأنهم يجعلون الحق والباطل في مرتبة واحدة، بحجة قبول الرأي الآخر، واحترام الأخر..وغيرها من العبارات، وقد جعل هؤلاء المقولات على

مرتبة واحدة في قابلية الخطأ والصواب ويلزم منه التسوية بين القائلين في قابلية الخطأ!! ومعناه المساواة بين الحق سبحانه وتعالى وأهل الباطل في إمكان وقوع الخطأ تعالى الله عما يقولون، وهو يتنافى مع عقيدة كل مؤمن يؤمن بأن الله هو الخالق العالم ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾، ودعواهم هذه من جنس دعوى المشركين الذين سووا بين الخالق و المخلوق قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 94: 102]. وقال سبحانه: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ويكفيهم شرا مشابهتم حال المشركين، ولما كانت مساواة الخالق بالمخلوق سفسطة غير مستساغة عقلا ولا فطرة لم تكن هناك حاجة في بيان بطلانها؛ إذ يكفي إقراركم أن الله خالق وما سواه مخلوق ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ وأما أهل الإلحاد فلهم حديث آخر.

والمقصود أنه يكفي في بطلان مثل هذه الأمور مجرد إيرادها، ولهذا لما حاول المشركون جعل آلهتم مساوية لله تعالى سفه الله أحلامهم، وحسم خرافتهم، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ مع أنه في حقيقة الأمر لا هؤلاء ولا أولئك جعلوهما سواء كما سيأتي.

البرهان العاشر: أن هؤلاء الليبراليين ومن شابههم ممن تأثر بفكرهم يرون أن إساءة معاملة المخلوق مع المخلوقين من قتل وظلم وإفساد وغيرها مدعاة لبغضه وكرهه ولكنهم لا يرون أن إساءة معاملة الخالق- من الكفر به وإساءة معاملته بألوان من الإساءة- مدعاة للبغض والكره، وهذا في غاية العجب!! ولو جعلوا إساءة المعاملة للخالق والمخلوق مدعاة للبغض على السواء لكانوا ظالمين في تسويتهم هذه! فكيف بتقديمهم معاملة المخلوق على معاملة الخالق سبحانه وتعالى عما يشركون؟؟ فأنى يصرفون؟؟ ويشبه حالهم- أيضا- حال المشركين حينما جعلوا نصيب الشركاء مقدم على نصيب الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وكل عاقل يؤمن بالله ربا يلزمه أن يقدم الله على خلقه، مع أن كثيرا ممن أخطأ في الولاء والبراء لم يتفطن لمثل هذه اللوازم، وإلا لما قال بها قطعا!.

البرهان الحادي عشر: أن إلغاء قانون الولاء والبراء لا يصلح لأصحاب الأديان السماوية خاصة، إذ مبناها على الإيمان بالله تعالى والسير نحوه وفق ما يحبه الله ويرضاه والبعد عن مساخطه ومباغضه، وهم لا يستقون معتقداتهم من الأهواء فيما يزعمون وإنما يستقونه من كتبهم المنزلة التي يؤمنون أنها الحق وما سواها الباطل ولازمها أن يحبوا من ينتمي إليهم كحبهم للحق ويبغضوا من يكفر بمعتقداتهم كبغضهم للباطل.

البرهان الثاني عشر: أن وجود مجتمع فيه حب لا بغض فيه أو بغض لا حب فيه لا وجود له سوى في الأذهان، أما في الواقع فهو غير موجود البتة ولا ينكر هذه الحقيقة إلا مكابر، ودعوى محبة كل شيء دعوى ذكرها أهل التصوف كما قال أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله- : " فَظَنُّوا أَنَّ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ أَنْ يُحِبَّ الْعَبْدُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يُحِبَّ كُلَّ مَوْجُودٍ بَلْ يُحِبُّ مَا يُلَائِمُهُ وَيَنْفَعُهُ وَيُبْغِضُ مَا يُنَافِيهِ وَيَضُرُّهُ وَلَكِنْ اسْتَفَادُوا بِهَذَا الضَّلَالِ اتِّبَاعَ أَهْوَائِهِمْ فَهُمْ يُحِبُّونَ مَا يَهْوَوْنَهُ كَالصُّوَرِ وَالرِّئَاسَةِ وَفُضُولِ الْمَالِ وَالْبِدَعِ الْمُضِلَّةِ زَاعِمِينَ أَنَّ هَذَا مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَمِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ بُغْضُ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَجِهَادُ أَهْلِهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ. وَأَصْلُ ضَلَالِهِمْ أَنَّ هَذَا الْقَائِلَ الَّذِي قَالَ: " إنَّ الْمَحَبَّةَ نَارٌ تُحْرِقُ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ " قَصَدَ بِمُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى الْإِرَادَةَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ فَكَأَنَّهُ قَالَ تُحْرِقُ مِنْ الْقَلْبِ مَا سِوَى الْمَحْبُوبِ لِلَّهِ وَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ الْحُبِّ أَنْ لَا يُحِبَّ إلَّا مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتَ مَا لَا يُحِبُّ كَانَتْ الْمَحَبَّةُ نَاقِصَةً وَأَمَّا قَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ فَهُوَ يُبْغِضُهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَسْخَطُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ فَإِنْ لَمْ أُوَافِقْهُ فِي بُغْضِهِ وَكَرَاهَتِهِ وَسَخَطِهِ لَمْ أَكُنْ مُحِبًّا لَهُ بَلْ مُحِبًّا لِمَا يُبْغِضُهُ. فَاتِّبَاعُ الشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامُ بِالْجِهَادِ مِنْ أَعْظَمِ الْفُرُوقِ بَيْنَ أَهْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَدَّعِي مَحَبَّةَ اللَّهِ نَاظِرًا إلَى عُمُومِ رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ مُتَّبِعًا لِبَعْضِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرِيعَتِهِ فَإِنَّ دَعْوَى هَذِهِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ مِنْ جِنْسِ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمَحَبَّةَ لِلَّهِ بَلْ قَدْ تَكُونُ دَعْوَى هَؤُلَاءِ شَرًّا مِنْ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِمَا فِيهِمْ مِنْ النِّفَاقِ الَّذِينَ هُمْ بِهِ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ كَمَا قَدْ تَكُونُ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى شَرًّا مِنْ دَعْوَاهُمْ إذَا لَمْ يَصِلُوا إلَى مِثْلِ كُفْرِهِمْ"اهـ.[35]

وإذا كان لا بد من وجود حب وبغض فإلى أي شيء نحتكم؟؟، وبأي مقياس نوالي ونعادي؟؟ هل نوالي ما تواليه الأهواء الليبرالية ونعادي ما تعاديه؟؟ أم نوالي ما تواليه الأهواء الاشتراكية ونعادي ما تعاديه؟؟ أم نوالي ما يواليه الصهاينة ونعادي ما تعاديه؟؟ أم نوالي ما تواليه الرافضة

[35] (?) مجموع الفتاوى (10/210)

ونعادي ما تعاديه؟؟ بأي هوى نوالي ونعادي؟؟ وبأي عقل نحب ونبغض؟؟ والعقول متفاوتة مختلفة والأهواء أشد تفاوتا وأكثر اختلافا قال تعالى: ولو كان من عند غير الله لوجود فيه اختلافا كثيرا وقال سبحانه: ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

البرهان الثالث عشر: أن محبتنا تبع لمحبة الله تعالى وقد أخبر الله عن نفسه أنه لا يحب الكافرين فقال: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ [الروم: 45]، وقال سبحانه: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ [آل عمران: 32].قال أبو العباس ابن تيمية- رحمه الله- : " وَاَللَّهُ يُبْغِضُ الْكَافِرِينَ وَيَمْقُتُهُمْ وَيَلْعَنُهُمْ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ؛ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُحِبًّا لِلَّهِ وَاَللَّهُ تَعَالَى غَيْرُ مُحِبٍّ لَهُ؛ بَلْ بِقَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَكُونُ حُبُّ اللَّهِ لَهُ؛ وَإِنْ كَانَ جَزَاءُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ أَعْظَمَ. كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)"[36] وهل يريدون منا محبة من أبغضهم الله تعالى؟؟ ألا كيف يفكرون؟؟

البرهان الرابع عشر: أن حب الكافر يلزم منه حب الكفر نفسه لما بين الكافر والكفر من التلازم شرعا ولغة وعرفا، لأن لفظ (الكافر) وصف يصدق على كل من صدر منه الكفر، والعرب تفهم من قولك أبغض الكافر أي: لكفره، ولهذا لما قال سبحانه: إن الأبرار لفي نعيم أي: لبرهم، وإن الفجار لفي جحيم أي لفجورهم، ولكن للعجمة أثر كبير؛ حيث سمعنا نفرا يقولون: لا نكره الكافر وإنما نكره فعله، وهذا لعمر الله تناقض في الواقع؛ إذ التفريق بين الصفة والموصوف ليس له وجود في الخارج وإنما وجوده في الأذهان، إذ الصفات لا يمكن أن تستقل بنفسها عارية عن الذوات؛ إذ لا وجود لكرم دون كريم ولا علم دون عليم ولا بغض دون مبغض ولا حب دون محب وهكذا. ولهذا ذكر أهل الأصول في أنواع الإيماء ومسالك العلة وغيرها: أن الحكم المعلق بوصف مناسب يدل على أن ذلك الوصف علة له، قال الطوفي –رحمه الله- : " النَّوْعُ السَّادِسُ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِيمَاءِ " اقْتِرَانُ الْحُكْمِ بِوَصْفٍ مُنَاسِبٍ، نَحْوَ " قَوْلِهِ: " أَكْرِمِ الْعُلَمَاءَ، وَأَهِنِ الْجُهَّالَ، كَمَا سَبَقَ " كَقَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا [النُّورِ: 2]، وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا [الْمَائِدَةِ: 38]، أَيْ: لِلزِّنَى وَالسَّرِقَةِ، وَقَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ ; يُفْهَمُ مِنْهُ تَعْلِيلُ عَدَمِ الْقِصَاصِ بَيْنَهُمَا بِشَرَفِ الْإِسْلَامِ وَنَقْصِ الْكُفْرِ، لِأَنَّ الْمَعْلُومَ مِنْ تَصَرُّفَاتِ الْعُقَلَاءِ تَرْتِيبُ الْأَحْكَامِ عَلَى

---

[36] (?) مجموع الفتاوى (10/212)

الْأُمُورِ الْمُنَاسِبَةِ " [37] وجماهير الأصوليين على اعتبار الوصف المناسب [38]، وهو في بعض الصور مقطوع به متفق عليه بين العلماء كالتعليل بالكفر لتعليق الأحكام على الكافر، والتعليل بالإيمان لتعليق الأحكام على المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فجعل الإيمان غاية لانتهاء البغضاء، ولهذا فرق الفقهاء بين من أوقف على الكفار ومن أوقف على المعينين منهم، فلا يصح أن يقال: أوقفت على أولادي الكفار!!، بينما يصح أن يقال: أوقفت على أولادي ولو كانوا كفارا في نفس الأمر؛ لأنه باتفاق الفقهاء لا يصح أن يجعل الكفر جهة للقربة، قال أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله- : "فَإِذَا أَوْصَى أَوْ وَقَفَ عَلَى مُعَيَّنٍ وَكَانَ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا لَمْ يَكُنْ الْكُفْرُ وَالْفِسْقُ هُوَ سَبَبُ الِاسْتِحْقَاقِ وَلَا شَرْطًا فِيهِ بَلْ هُوَ يَسْتَحِقُّ مَا أَعْطَاهُ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا عَدْلًا فَكَانَتْ الْمَعْصِيَةُ عَدِيمَةَ التَّأْثِيرِ بِخِلَافِ مَا لَوْ جَعَلَهَا شَرْطًا فِي ذَلِكَ عَلَى جِهَةِ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ أَوْ عَلَى الطَّائِفَةِ الْفُلَانِيَّةِ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا كُفَّارًا أَوْ فُسَّاقًا فَهَذَا الَّذِي لَا رَيْبَ فِي بُطْلَانِهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ.". [39]

والمقصود أن بغضنا للكافر مبني على وصف مناسب، فلا وجه لمن يقول بجواز محبة الكافر إلا غلط في اللسان، أو مناكفة للإيمان..

وقريب من هذا من يقول: "البراء من الأعمال وليس من الأشخاص" كما حكي عن الشيخ ابن بيه!! [40]

وهو مخالف للنصوص التي فيها البراء من الأشخاص كبراءة إبراهيم والذين معه من قومهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة: 4] ثم هذا الفصل بين الأفعال والأشخاص لا يصح

---

37 (?) شرح مختصر الروضة (3/373)

38 (?) المستصفى من علم الأصول (2/203) شرح الكوكب المنير (4/140)

39 (?) مجموع الفتاوى (31/31)، وانظر: في شرح الزركشي (2/206): (أما الوقف على أهل الذمة، كأن قال: وقفت على النصارى، أو على نصارى هذه البلدة، ونحو ذلك، فمقتضى كلام أبي البركات وصاحب التلخيص أنه لا يصح، لأن الجهة جهة معصية، بخلاف الوقف على أقاربه من أهل الذمة لأنها جهة بر) وفي أحكام أهل الذمة (1/607): (وقد قال أحمد في رواية حرب وقد سأله الرجل يوصي لقرابته وله قرابة مشركون هل يعطون شيئا؟ قال لا إلا أن يسميهم، وقال أبو طالب سألت أبا عبدالله عن الرجل يوصي لقرابته وفيهم يهودي أو نصراني ومسلمون؟ قال سماهم؟ قلت لا قال فلا يعطى اليهودي والنصراني يعطى المسلمون قلت فإن سمى اليهودي والنصراني؟ قال إذا سماهم نعم.)

وقال العلامة ابن القيم موضحا كلام الإمام أحمد: في أحكامه (1/609): (أن الوصية لا تصح للكفار وإن صحت للمعين الكافر فالفرق بين أن يكون الكفر جهة أو تكون الجهة غيره والكفر ليس بمانع كما أوصت صفية لأخيها وهو يهودي فلو جعل الكفر جهة لم تصح الوصية اتفاقا)

40 (?) نقله عنه غير واحد من كتابه الإرهاب مثل د. أحمد الرفاعي ينظر: المنتدى الإسلامي العالمي للحوار.

شرعا إلا بوجود عوارض الأهلية، وأما عند تحقق الشروط وانتفاء الموانع فلا يمكن الفصل البته، ولو صح مثل هذا فيلزم منه أن لا يحاسب أحد ولا يلام أحد بل ولا يوصف أحد بالكفر والظلم والفسوق والعصيان.. وهذا ظاهر البطلان!

وترى بعض هؤلاء الغالطين يقولون: إخواننا اليهود والنصارى أو من يسمون بالمسيحيين، ونحوها من العبارات التي تكسر حاجز الولاء والبراء، وبعضهم يبرر لنفسه مثل هذه العبارات بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وقوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وقوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ حيث جعل الأخوة بين الأنبياء وقومهم الكافرين!!

وليت شعري..متى يفرق هؤلاء بين السياقات ومسالك العلل ودلالات الألفاظ؟؟ وهم أرباب اللسان، وأساتذة العلل!!

ألم يروا أن الله حينما نسب قوم شعيب إلى الأيكة لم يذكر لفظ الأخوة كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ مع أنه جعله أخاهم لما نسبه إلى بلد مدين في قوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؟؟ ألا يلحظون سر اختلاف اللفظ من أجل اختلاف السياق؟؟، قال ابن كثير- رحمه الله- : " هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة, وهي شجرة, وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها, فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب, وإنما قال ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه , وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة" اهـ[41] وبهذا البيان الجلي يتضح خطأ مثل هذه العبارات من وجهين:

الوجه الأول: أنه –سبحانه- لما نسب القوم إلى دينهم الباطل وعقيدتهم الشركية لم يقل: أخاهم؛ لئلا يوهم في بقاء صلة الحق بالباطل!!، وحينما نسبه إلى قومه أو بلده لم يكن هناك ما يمنع من ذكر الأخوة البتة؛ لانتفاء وهم الصلة بين الحق والباطل، وبهذا يتضح الجواب لمن يقول مثل تلك العبارات بمجرد الإجابة على هذا السؤال وهو: هل الانتساب إلى اليهودية أو النصرانية من الانتساب إلى الدين الباطل أم من الانتساب إلى القوم والبلد؟؟ ولا ريب أنه من الانتساب إلى الدين لا من الانتساب إلى القوم والبلد كما لا يخفى؛ ولهذا لم يفرق الفقهاء بين من أوقف على نصارى بلدة معينة وبين من أوقف على كفارها!![42]

41 (?) تفسير ابن كثير (3/419)
42 (?) ينظر: شرح الزركشي (2/206) وتقدم نصه قبل قليل

الوجه الثاني: أن الأنبياء الذين ذكر لفظ (الأخوة) بينهم وبين قومهم كانوا في الحقيقة إخوانا في النسب، ومثل هذا لا غبار عليه نظير قول الأب المسلم لابنه الكافر: يا بني، أو قول الابن لأبيه: يا أبتي، أو قول الأخ لأخيه: يا أخي.. ونحوها، قال نوح - عليه السلام- لابنه: ﴿يا بني اركب معنا﴾، وقال إبراهيم – عليه السلام- ﴿يا أبتي إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ وقريب منه لو قيل للعربي: يا أخا العرب، أو للأوربي يا أخا الأوربيين أو للأمريكي يا أخا الأمريكيين أو للصيني يا أخا الصينيين ونحو ذلك فلا حرج فيه في الأصل كما ذكرنا، بخلاف ما لو قيل: يا أخا الكفار، أو يا أخا اليهود والنصارى!!.

والمقصود أن من انبرى في نصرة قوله في تمييع الولاء والبراء بمجرد التمسك برسم الألفاظ والحروف وتجاهل السياق والأوصاف والظروف، فقد خرم قانون اللسان، ونقض عرى الإيمان، بأوهى حجة وأفسد منطق وأبرد برهان!!

ومما يقضى منه العجب أن كثيرا من هؤلاء لو قيل له: هل تكره الظالم والجاحد والإرهابي؟؟ لقال بملء فيه: بلى أكرههم، مع أن الله وصف من خالف الحق بالكفر الذي هو أشد الجحود كما وصفهم بأهل الباطل و الظلم العظيم كما تقدم. وهؤلاء خلطوا بين الحب الطبيعي كالحب من أجل البنوة أو الأبوة أو من أجل العلاقة الزوجية ونحوها وبين الحب من أجل الدين، وظنوا التلازم المطلق بينهما، مع أن الأصل أنه لا تلازم بينهما إلا حينما يلزم من الحب الطبيعي معاضدة الباطل، فهاهنا يتوارد الحب والبغض على محل واحد؛ وحينئذ لا يمكن الجمع بينهما، وإنما يجب تقديم حب الحق على حب الباطل قطعا نظير قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وهي تتناول حالة الحرب التي فيها إعانة للكفار على قتال المسلمين كما رجحه ابن جرير وغيره [43]، وذلك حينما يتوارد الحبان- الشرعي والطبيعي- على محل واحد! وأما من قدم حبه الطبيعي على شيء من محاب الله تعالى فقد يكون إثما ينقص إيمانه بحسبه ولا يكفر به صاحبه كفعل حاطب- رضي الله عنه- في قصته المشهورة، وفعل سعد بن عبادة في نصرته لابن أبي في قصة الإفك، وقد يكون كفرا يمرق به من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية كمن يؤدي به حبه الطبيعي إلى ارتكاب ناقض من نواقض الإيمان!!

البرهان الخامس عشر: أن اليهود والنصارى قد افتروا على الله الكذب بزعمهم أن لله ولدا- سبحانه- ، وإذا كان من يفتري الكذب على الناس

---

43 (?) تفسير الطبري (23/323)

يستحق البغض والكراهية فكيف بمن يفتريه على الله تعالى؟؟، ولهذا كان الإمام أحمد - رحمه الله - إذا نظر إلى نصراني أغمض عينيه، فقيل له في ذلك فقال - رحمه الله - : (لا أستطيع أن أنظر إلى من افترى على الله وكذب عليه).

البرهان السادس عشر: أن الحب والبغض صفتان وجوديتان وهذا معلوم بالاضطرار [44]، وباتفاق النظار أن الصفات الوجودية أكمل من الصفات العدمية؛ وعليه من يتصف بالحب والبغض أكمل ممن لا يتصف بهما أو أحدهما، ولهذا وصف الله نفسه بأنه يحب ويبغض كما قال سبحانه: (يحبهم ويحبونه) وقال: (ولكن كره الله انبعاثهم) وحبه تعالى وبغضه يليقان به سبحانه لا كحب المخلوقين وبغضهم، وهما صفتان من صفات الكمال للمخلوقين أيضا؛ فمن يحب ويبغض أكمل ممن لا يحب ولا يبغض، ولما كرم الله بني آدم أودع فيهم تلك الصفتين الوجوديتين- وهما الحب والبغض- ومن يزعم أنه ليس في قلبه حب لأحد أو ليس في قلبه بغض لأحد - مع أنها مكابرة - لو قدر وجودها فهي نقص وليست كمال، وإذا تقرر من هذا الطريق كمال الحب والبغض وأن أربابهما أكمل وهم أولى بالاعتبار من الناقصين؛ لنقصهم بإزاء من هم أكمل منهم، وعلم من هذا أن دعوى كثير من الليبراليين بالحياد وأنهم لا يكرهون أحدا – مع منافاتها للحقيقة – تعد صفة نقص تجعل صاحبها تحت رتبة الاعتبار باتفاق النظار!!؛ وعليه يكون المدعي بين خيارين أحلاهما مر، إما أن لا يقر بوجود كره في قلبه أصلا على أحد فحينئذ لا يعتد بقوله؛ لأنه في عداد الناقصين!!، أو أن يقر بما تنطوي عليه نفسه من بغض لطائفة ما كما هو معلوم بالاضطرار، وحينئذ يحق لنا السؤال عن سبب الكره لتلك الطائفة؟!! وأيا كان الجواب فلن يكون أشرف من جواب المؤمنين: وهو أنهم يبغضون الكفار لما يحملونه من باطل!!

البرهان السابع عشر: أن كثيرا من هؤلاء الغالطين وغيرهم من الليبراليين يجادلون في بغض اليهود والنصارى وسائر الكافرين بصرف النظر عن بطلان أديانهم ومعتقداتهم، مع أن الحب والبغض فرع عن صحة الدين وبطلانه، وليس من المنطقي أبدا أن يكون الفرع المرتبط بأصل لا ينفك عنه محلا للنقاش، ويترك الأصل الذي يبنى عليه ذلك الفرع، وكان يفترض بالمنازع قبل أن يدفع البغض ويناقش فيه أن يبرهن صحة أديانهم ومعتقداتهم!!

[44] (?) مجموع الفتاوى (11/148)

ولا يشك عاقل في بطلان دين اليهود والنصارى وغيرها وما تنطوي عليه من ألوان الظلم اتجاه الخالق الذي هو أعظم الظلم وأقبحه!!؛ وهل من العدل أن يوصف الله - الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء - بالعجز والحاجة إلى غيره من زعمهم أن له زوجة وولدا سبحانه؟؟ وهل من العدل أن يقابل الكريم المتفضل بالجحود والنكران؟؟ والكلام عن بطلان الأديان المحرفة يطول بسطه.

البرهان الثامن عشر: أنه من المتقرر شرعا وعقلا أن محبة أهل الباطل تعد مناصرة لهم و رضى بما يصنعون حتى لو ادعى محبهم أنه لم يناصرهم على باطلهم ولم يرض بذلك فدعواه غير صحيحة؛ لأنه من لازم المحبة الرضى، ولا يمكن وجود محبة من غير رضى، ولو زعم أحد أنه يحب الربا ولا يرضى به لكان متناقضا كاذبا في دعواه، بل ويدل على أن امتناعه عن فعله - مع وجود المحبة- إنما هو العجز لا غير.

فإن قيل: ليس بين المحبة والرضى تلازم؛ إذ يمكن أن يحب الإنسان بعض المنكرات كالربا وما يجنيه من الأرباح منه ومع هذا لا يفعله ولا يرضى به خوفا من الله تعالى لا خوفا من غيره!!

والجواب: أن حبه للشهوات والمنكرات لما عارضها ما هو أكثر حبا منها من حبه لله تعالى، وحبه للنجاة من أليم عقابه، لم تعد تلك الشهوات محبوبات في حقيقة الأمر، كمن يرى طعاما يحبه ولكن لعلمه بما يحويه من السم لن يأكله ولن يحبه ولن يرضى به لمحبته للسلامة من ضرره، وذلك الطعام حينئذ لم يعد محبوبا له في الحقيقة وإن كان جنسه محبوبا له؛ إذ لو أحب ذاك الطعام لرضي به، وعلم حينئذ أن عدم رضاه به كان موافقا لمحبوبه الأعظم ملازما له، بل لا يكاد يوجد أمر إلا ويحوي بغضا وحبا ولكن العبرة بالغالب منهما والآخر ملغى! فالمسلم – مثلا- يحب الصلاة والزكاة والصيام والجهاد وغيرها مع أنها تحوي مشقة تبغضها النفس الإنسانية بطبيعتها لكن هذه المشقة ملغاة مقارنة بما يحبه العبد من الثواب والنجاة من العقاب.

فإذا تقرر خطأ محبة الباطل؛ فإن التفريق بين الخطأ وصاحبه مطلقا لا يقول به أحد قط من الأديان السماوية ولا القوانين الوضعية ولا غيرها، ولو صح هذا التفريق لسلم الناس قاطبة من العقاب بهذه الحجة المتهافتة.

إشكاليات التعامل:

تعاملات الناس مع غيرهم تنضح بإشكاليات عديدة، إذ منهم من يغلب جانب العدل على جانب الرحمة والإحسان وفي هذا الأسلوب شدة!، وهو

أشبه بشريعة موسى- عليه السلام- وهي مناسبة لقومه وزمانه لما يتصف به اليهود من جلافة الطباع وقسوة القلوب فهي كالحجارة أو أشد قسوة كما تميزوا بالحقد والحسد والتكبر وتحريف الكلم عن مواضعه وغيرها من الصفات الغليظة، لكنها لا تناسب الأمة المحمدية الوسطية، ومنهم من يغلب جانب الرحمة والإحسان على جانب العدل وفي هذا الأسلوب تساهل!، وهو أشبه بشريعة عيسى- عليه السلام- وهي مناسبة لقومه وزمانه؛ لما يتصف به قومه من رقة في القلوب، ورهبانية، وعدم تكبر وغيرها من الصفات الرقيقة، لكنها لا تناسب الأمة المحمدية، ولما كانت أمة النبي- صلى الله عليه وسلم- وسط بين اليهود والنصارى بعثه الله بالعدل والإحسان معا قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، وقد شرع لنا معاملة الكافرين بالعدل والإحسان في الوقت ذاته، فنهى عن ظلمهم مطلقا سواء في السياسة أو الاقتصاد أو غيرها، وشرع سبحانه مقابلة المعتدي بنفس عدوانه عند القدرة على ذلك كما قال: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وغيرها من ألوان العدل، كما شرع العفو والإحسان بقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿والكاظمين الغيض والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ وجمع بين العدل والإحسان في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ وغيرها.

ولو عاملنا الكافرين بالعدل وحده لاستحقوا القتل جميعا؛ لأن الظلم الحاصل بعبادة غير الله أو الشرك به أعظم من الظلم الحاصل بالقتل والزنا وغيرها من أنواع الظلم كما تقدم بيانه، لكن الله لكرمه ولطفه وإحسانه على هذه الأمة جعل مهلة كبيرة للكفار ليتفكروا في الشريعة الإسلامية وحتى تقوم عليهم الحجة الرسالية، وأما من منع وصول الحجة الرسالية إلى الناس، وحرمهم فرصة التفكر في الدين الحق كما تفعله بعض الحكومات الكافرة مع شعوبهم، فيجب إزالتهم عند القدرة على ذلك؛ ليصل الحق صافيا نقيا إلى الناس من غير تحريف أو تشويه، وبعدها يترك الخيار للناس من شاء أسلم ومن شاء بقي على كفره!!

كما أن معاملة الكافرين غير الحربين بالبر والإقساط إليهم مع بقاء العزة الإيمانية فيه عدل وإحسان في نفس الوقت، فنهى عن ظلمهم والإجحاف في حقهم مهما بلغ بغضنا إياهم، وشرع رد المعروف والإقساط إليهم وهذا من العدل!!، كما شرع البر بهم وهذا لون من ألوان الإحسان بهم، وقد جمع بينهما بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وبهذا تنحل كثير من الإشكاليات التي قد تعرض في الأذهان.

وهذا موافق للبرهان العقلي: إذ في إساءة معاملتهم من الصد عن سبيل الله والتنفير عن دينه ما يتنافى مع الحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن، كما أن الله أرسل رسوله رحمة للعالمين، وليس من الرحمة في شيء تنفير الكافرين بإساءة معاملتهم والتجهم في وجوههم!!.

لكن يبقى إشكالان:

الإشكال الأول: أليس هناك تلازم بين القلب والجوارح، فكيف يمكن الجميع بين بغض الكافر وحسن معاملته؟؟ وقد ثبت عن النعمان بن بشير عن النبي – صلى الله عليه وسلم- قال وفيه: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) متفق عليه.[45]

والجواب: أن هناك تلازم بين القلب والجوارح من حيث الصلاح والفساد كما هو نص الحديث، وليس فيه أن البغض يستلزم إساءة المعاملة ولا أنه لا يستلزمها، وإنما صلاح شيء في القلب يستلزم صلاح ما يوازيه من الجوارح، فالبغض للكافرين- مثلا- من صلاح القلب وهو يستلزم صلاح ما يوازيه في الظاهر من مجانبتهم في عبادتهم ولباسهم وسلوكهم السيئ، كما أن الرحمة

للخلق من صلاح القلب وهي تستلزم معاملة الكافرين بالبر والإقساط إليهم والشفقة عليهم، لكن حينما تشتمل الرحمة على لون من ألوان الظلم كالذل للكافرين أو معاونتهم على شيء من الظلم اتجاه الخالق أو المخلوق فهي محرمة بل لا تكون رحمة في الحقيقة، وإنما تكون ضعفا وخورا، أو رغبة في الدنيا وطمعا، بل قد تكون مناصرة للباطل يخرج به صاحبه من حظيرة الإسلام!!

الإشكال الثاني: كيف نجمع بين مشروعية معاملة الكافر بالبر والإقساط إليه كما تقدم وبين بقاء العزة والاستعلاء للمؤمن كما قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تبدؤوهم بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه)) ونحوها من النصوص.

---

45 (?) صحيح البخاري (1/38) وصحيح مسلم (5/50)

والجواب: أن حسن المعاملة لا يتنافى مع بقاء العزة الإيمانية؛ يوضح ذلك أن منصب الإسلام أعلى من منصب الكفر بالله، وفي إذلال المرء لنفسه لمن هو دونه تهوين من شأن منصبه، وتصغير للحق الذي يحمله، والعقل والفطرة لا يستسيغان ذل صاحب المنصب الأعلى لمن هو دونه في المرتبة، وإن كانا لا يمانعان من حسن التعامل معه، ويمكن تقريب الصورة- مع وجود الفارق- لو أن حاكما قدم أحد العوام الوضعاء ذا طمرين ليسبقه في دخول الباب!!، فلن يستساغ منه هذا التصرف عند عامة الناس؛ لما تقرر في عقولهم من البون الشاسع بين منصبيهما، مع أنها مناصب دنيوية فانية لا تساوي جناح بعوضة، وهي في حقيقتها تكليف لا تشريف، لكن لما تمكن الفرق الشاسع في العقول لم تستسغ تقديم ما يظنونه وضيعا على الحاكم؛ لأن فيه- لمن تمكن عنده الفرق بينهما- تهوين من منصب الحاكم، وحط من قدره، بخلاف ما لو ابتسم في وجه ذلك العامي الوضيع، ومدحه وأحسن وفادته، فسيعد الحاكم متواضعا ولو لم يقدمه عليه!!، بينما يستساغ في عرفهم أن يفعل مثل ذلك مع حاكم آخر لاستوائهما في المنصب والمقدار، بل ويعد من حسن الخلق ويثنى على صاحبه بالتواضع، وكل هذا في تفاوت دنيوي لم يُنِط به الشرع شرفا ولا كرامة، فكيف إذا كان التفاوت بين المنصبين حقيقيا وكبيرا كالمنصب الإيماني والمنصب الكفري؟ فالكافر- في ميزان العدل- منصبه في غاية الوضاعة؛ لجحوده وظلمه وباطله وغير ذلك، ومنصب المؤمن – في ميزان العدل - في غاية الرفعة والكرامة؛ لعدله وما يحمله من حق، ومن تقرر لديه هذا المعنى فلن تستسيغ فطرته وعقله أن يذل المؤمن صاحب المنصب الرفيع لمن هو دونه في المنصب ممن كفر بالله تعالى، بينما لا يمنع المؤمن- صاحب المنصب الرفيع- أن يتعامل معاملة حسنة مع الكافر- صاحب المنصب الوضيع -؛ لأنه ليس في حسن معاملته غض من منصب المؤمن، ولا حط من مقداره، بينما يستحب الذل بين المتساوين في المنصب والمقدار حقيقة، ولما كان المؤمنون يتربعون على نفس المنصب الإيماني كان ذل بعضهم لبعض وتقديم بعضهم لبعض مما يحمدون عليه كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وقياس ذلك أن ذل الكافر لمن هو مثله مستساغ شرعا وعقلا لاستوائهما في المنصب والمقدار!!.

وأسأل الله بمنه وكرمه أن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا، وآخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا من كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

وأسأله أن يجعلنا من أهل ولايته، ومن المتحابين فيه، ومن المبغضين للكفر كما نكره أن نقذف في النار، وأسأل الله أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، والله المستعان وعليه التكلان.

فهرس المحتويات